مجلة

كلية التربية | جامعة الخرطوم

العدد الثاني عشر | السنة الحادية عشر

سبتمبر ٢٠١٨م

الهكسوس ودورهم الحضاري في مصر القديمة

Hoksos, and their role in civilization in ancient Egypt

الدكتور/ عصام كامل جبر مخيمر

استاذ التاريخ القديم المساعد

جامعة الأزهر – غزة

sam.m.١٩٦٨@hotmail.com

الهكسوس ودورهم الحضاري في مصر القديمة

Hoksos, and their role in civilization in ancient Egypt

د.عصام كامل جبر مخيمر

استاذ التاريخ القديم المساعد

جامعة الأزهر – غزة

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى الرد على إدعاءات المؤرخين، بأن الهكسوس قبائل أجنبية همجية، احتلوا مصر ونشروا فيها الخراب والدمار، واستباحوا أهلها وأرزاقها، وأنزلوا بأهلها شتى صنوف البلاء والعذاب، وخربوا المعابد والحصون، وبعد ذلك قام المصريون بطردهم بعد تأسيس الدولة المصرية الحديثة في عصر الفرعون أحمس الأول، ووضّحت الدراسة أصل الهكسوس وديانتهم، وكيفية دخولهم مصر، والإنجازات الحضارية والمعمارية التي قاموا ببنائها في جميع مناطق مصر، حيث توصلت الدراسة إلى أن الهكسوس هم قبائل عربية، كانوا أصحاب حضارة عريقة استفادت منها مصر حتى بعد طردهم منها، بعد قرن من الزمان أو يزيد.

Abstract

This study aims to respond to the claims of the historians that the Hyksos are foreign, and barbarian tribes had occupied Egypt and had spread Corruption, and destruction. They had tortured its people, had stolen their money and property. They had also destroyed its temples, and fortifies .Then the Egyptians threw

them out after establishing the modern Egyptian state at the era of the Feraohnee Ohmsthe first. The study clarified the origins of the Hyksos, their religion, how they entered Egypt and the Constructions and civilized establishments they established in all the Egyptian places. The study conclusion has shown an interesting fact which is that the Arab Hyksos are Arabian tribes, they had great and pioneer civilization which Egypt got benefits from even after throwing them out after along age and generation.

مقدمة:

ورد في المصادر الكلاسيكية، أن قوماً عرفوا باسم (الهكسوس)، وهي الصورة اليونانية للكلمتين المصريتين القديمتين (حقا- خاسوت) أي حكام البلاد الأجانب، وهي قبائل بعضها من أصل عربي- سامي، والبعض الآخر من عناصر هندو أوروبية. واستقّر هؤلاء الغزاة - حسب تلك المصادر- الذين جاءوا في صورة هجرات زحفت على حدود مصر بسبب عوامل القحط التي أصابت مناطق وجودهم، في شرق الدلتا.

وتبيّن الآثار المكتشفة في الأردن وفلسطين وبلاد النوبة، وبخاصة الجعلان المنقوشة، الصلة الوثيقة التي كانت قائمة بين حكام هذه البلاد وبين الهكسوس في أثناء حكمهم لمصر خلال فترة الانتقال الثانية.

ولا تزال الآراء متضاربة حول الهكسوس إلى اليوم، لأنَّ الوثائق المصرية المدونة هي من الفترات التي تلت عصر الهكسوس، ولا تمثل إلّا وجهة نظر واحدة هي وجهة النظر الفرعونية، التي تعكس نظرة مغلوب تجاه غالب أجنبي، وكثير مما جاء فيها غير حقيقي ومبالغ فيه، كما تدل على ذلك الأخبار والتناقضات الواردة فيها، كوصفهم بالوباء والطاعون.

أمّا قصة غزو الهكسوس لمصر فقد رواها المؤرخ اليهودي (يوسفوس)حكاية عن الكاهن (مانيتون المصري) الذي يقول فيها:" في عهد توتيمايوس أحد ملوكنا، نزلت علينا لعنة من غضب الإله دون أن نعرف لذلك سبباً، فقد تجرأ قوم ليس لهم أي شهرة، على غزو بلادنا بجيش كبير، جاء من ناحية الشرق فجأة، فسيطروا على البلاد بسهولة، وقتلوا بعض أمرائنا، ووضعوا السلاسل في أيدي آخرين، وأحرقوا المدن والمعابد، وعاملوا السكان بقسوة، فقتلوا عدداً كبيراً منهم، وسبوا النساء والأطفال، ثم نصَبوا واحداً من أمتهم ملكاً علينا (مهران١٩٩٥، ص٤٥٣)

وتؤكد الروايات أنَّ أولئك الذين اجتاحوا مصر فجأة في منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد كانوا أشتاتاً من البابليين وغيرهم، الفارين من الفتك الذي أعمله فيهم (أزدرخت المادي)، عندما فتح بابل عنوة بعد حصار عنيف.

واستقر الهكسوس في مصر قرابة مائة وخمسين عاماً ،أسسوا خلالها حكم أسرتين، الخامسة عشر والسادسة عشر ومع ذلك، فقد تجاهلتهما بعض القوائم الملكية المصرية ،وهما قائمتا "أبو دوس" و "سقارة"، لعدم اعترافهما بحكم هؤلاء المغتصبين.

أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة الى ازالة الغموض الذى يحيط بالهكسوس وأصولهم وتاريخهم وإثبات عروبتهم، وحضارتهم من خلال الشواهد التاريخية

مشكلة الدراسة:

سوف تتناول هذه الدراسة تفنيد الادعاء بأن الهكسوس محتلّين أجانب، وأنهم أفسدوا في مصر القديمة، وإنما كانوا أصحاب حضارة، من خلال التساؤلات الآتية:

١- من هم الهكسوس؟
٢- كيف غزا الهكسوس مصر؟
٣- ما ديانتهم؟
٤- ما أهم ملامحهم الحضارية؟

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة بأنها ستفنِّد إدِّعاءات بعض المؤرخين، بأن الهكسوس أجانب

ومخربين، وعطلوا تقدم الحضارة المصرية في العصر الوسيط.

منهجية الدراسة:

سيعتمد البحث المنهج النقدي، لأنه سيساعد في دحض، ونقض الروايات التاريخية المتعددة.

أولاً: - من هم الهكسوس:

لم يتفق الباحثون حول أصل الهكسوس، وإن اتفق أغلبهم على أنهم (ساميّون)*، وقال بعضهم أنهم كنعانيّون، وقال آخرون أنهم بابلّيون، وقال فريق ثالث أنهم فلسطينيّون، لكن (مانيتون) يرى أن البعض يقول أنهم كانوا عرباً، وهو هنا يقصد أهل الجزيرة العربية، وهذا الرأي في عروبة الهكسوس أصبح مقبولاً تماماً لدى طائفة كبيرة من الباحثين، وما يعنينا هنا هو التسمية التي أطلقت، وهي التي نقلت إلينا في لسان اليونان، وانتقلت من بعد كما هي إلى بقية اللغات، ومنها العربية، هكذا: هكسوس. (خشيم١٩٩٨،ص٨٥)

ويرى H.Brugsch، أن هذه هي التسمية الشعبية التي أطلقت على العرب (الأعراب، البدو) الذين حكموا الدلتا قادمين من الشرق، ولم يكن الهكسوس يسمون أنفسهم بها.(H.Brugsch,p٢٣٢:)

*

عليها الكتاب الموالون للصهيونية والاستعمار ما أطلق عليه اسم (علم الأجناس). ولغياب الفكرالإسلامي يفضل استخدام مصطلح العرب بدلاً من الساميين، لان هذا المصطلح لم يرد مطلقاً في كتابات العرب والمسلمين على مدى التاريخ، وقد استمد هذا المصطلح من نصوص التوراة المكتوبة على أيدي الأحبار، وفي ظل تقسيم وهمي للأجناس البشرية مستمد من أسماء أبناء نوح:(سام وحام ويافث).

وقد كان (شلوتسر) هو أول كاتب غربي استعمل مصطلح السامية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، واعتمد في هذه التسمية على نص من التوراة. وقد كانت الصهيونية وراء تلك الفكرة ومن ثم اتسع نطاق هذه المقولة فأقام في تلك المرحلة، فقد اتسع نطاق الفكرة الإسرائيلية التي سيطرت على مناهج الجامعات ودراسات الثقافة جميعا. للتفاصيل أنظر(الجندي ١٩٨٥، ص١١-٣٠)

إنَّ كلمة الهكسوس لا تعني قوماً، أي لا تعني أسما علماً، وإنما هي لقب أطلقه المصريون القدماء على كل غريب يحكم بلاداً غريبة، أي بالمعني الواسع حكام المناطق الأجنبية، فقد ورد هذا التعبير في تاريخ مصر قبل مجيء الهكسوس إليها، وذلك في زمن السلالة الثانية عشر، واستعمله المؤرخ المصري (سنوحى) الذي التجأ إلى بلاد الشام في فترة الاضطراب الذي عم مصر نتيجة مقتل الفرعون (أمنمحات الأول)، وكتب عن فترة الاضمحلال التي سبقت هذا العهد، إلَّا أنَّ الكاتب المصري (مانيتو) الذي عاش في فترة ٢٨٠ ق م، أخذ هذا التعبير، وفسره تفسيرا خاطئا بأنه يعني (ملوك الرعاة)، لذلك فأن كلمة الهكسوس وهي المصرية القديمة (حق-حاسوت) أي حكام البلاد الأجنبية، أي بالمعني الواسع (البلاد التي تقع خارج حدود المملكة المصرية آنذاك). (شاكر٢٠١١، ص١٧٥)

ويذكر جاردنر، إنَّ الأسرة السادسة عشر لدى مانيتو ملفقة تماماً، وأن الأشياء التي ذكرت كآثار لهم كانت من أصل فلسطيني،(سليم ١٩٩٨، ص٢٣١) وهذه شهادة من عالم آثار أجنبي تثبت أنهم عرب.

وإذا أردنا أن نحدد الجنس الذي ينتمي إليه الهكسوس، فانه يمكن القول بأنهم ينتمون إلى الجنس الساميّ، ويستدل على ذلك من بعض أسماء الأعلام التي كانت منتشرة بينهم، مثل يعقوب، عبد، نحمن، باناس، وأيضاً من أسماء بعض الآلهات والآلهة التي عبدوها مثل، عشتار وبعل، وهي آلهة ساميّة، ورغم أن كل الدلائل تشير إلى أنهم من أصل سامي، إلا أنه يستدل من أسمائهم أنهم عرب جزريَّون أي من جزيرة العرب، المهد الأول للقبائل العربية التي انحدرت عبر العصور إلى الأرض العربية ،المتمثلة اليوم بالأقاليم المجزأة، وعلى هذا الأساس وكنتيجة معروفة في التاريخ فأن أكثر القبائل التي نزحت من جزيرة العرب استقرت في البداية في بلاد الشام، لذلك فإن الهكسوس جزءٌ من الكنعانيين انحدروا من الأموريين، وسكنوا بلاد الشام في مستوطنات خاصة بهم، وعلى الأخص جزئها الجنوبي. وما يدعم هذا الرأي أن أغلب أسمائهم التي خلفوها في مصر وسوريا وجزيرة كريت هي أسماء عربية، كما ورد في كثير من الأسماء المذكورة سابقاً، إضافة إلى الكلمات العربية التي ظلت تستعمل في مصر بعد فترة الهكسوس، وهي حكمة- العربة- مركبة عجلوتي، بمعنى عجلة، إضافة إلى دخول أسماء لآلهة غير مصرية، بل عربية، كعشتروت- بعل- وغيرها، ، وجعلوا من فلسطين موطنهم الأصلي، ودعموا وجهة

نظرهم هذه بهروب الهكسوس بعد انتصار المصريين عليهم في اتجاه فلسطين حين حوصروا في بلدة شاروهين جنوبي غزة، وأيضاً اختيارهم عاصمتهم أواريس في أطراف مصر من ناحية الشرق في مواجهة فلسطين.

وسجَّلت الأواني الفخارية التي اكتشفت في مصر الكثير عن الهكسوس، فالنماذج التي وجدت في المنطقة المسماة اليوم (تل اليهودية)، والتي كانت قلعة أفاريس الهكسوسيّة تؤكد وجودهم من ٢٢٠٠-١٦٠٠ ق.م .والسواتر الترابية المكتشفة في تل اليهودية وهيليوبوليس تعود إلى الهكسوس، ويشابهها سواتر قادش (تل النبي مندواليوم)، في شمال سوريا، مما يزيد في التأكيد أنهم أموريون- كنعانيون. ويؤكد الباحث G.F. Knight مراراً أن الهكسوس هم من الأموريين، وليس من دليل يشير إلى غير ذلك، حتى لو وجد بعض المقاتلين من الحيثيّين أو غير الحيثيّين من الأجناس غير العربية في صفوفهم، فهذا لا يلغي القاعدة الأساس. (السعد١٩٩٨،ص٤٧)

ويذكر بعض المؤرخين ،أن هذه الجماعات جاءت إلى مصر من برزخ السويس ، أو من طريق جنوب الجزيرة العربية عبر مضيق باب المندب ، جاءت و معها حضارة أرقى مما كان في مصر ، فجاءت بحسب رأيهم بفن التحنيط و بالكتابة الهيروغليفيّة (دروزة ،ص٢٦)

وقد جاء في صحيفة الشرق الأوسط في خطوة من شأنها أن تميط اللثام عن جانب من التاريخ العسكري لمصر الفرعونية، أن وزارة الآثار المصرية أعلنت عن اكتشاف علماء مصريين موقعا عسكريا شهد –على ما يبدو- معركة فاصلة وعنيفة بين الجيش المصري والهكسوس في شبه جزيرة سيناء، شرق البلاد. وقال وزير الدولة لشؤون الآثار الدكتور محمد إبراهيم ، إنه: "تم الكشف داخل هذه المباني عن دفنات لهياكل آدمية وحيوانية من عصر الهكسوس، ومعها العديد من الهياكل الآدمية وجدت مطعونة برؤوس بالسهام والحراب. (صحيفة الشرق الاوسط ، ٢٠١٣م)

غير أن هناك وجهة نظر أخرى تذهب إلى أنه لم يكن هناك غزو بالمعني المفهوم، وإنما كان تسللاً سلميا من العناصر الآسيوية التي استقرت شرق الدلتا على مقربة من مواطنها الأصلية، ربما بسبب اضطرابات انتشرت في المناطق التي تقع في الشمال والشرق من مصر، وأما بالنسبة للمصريين فقد ظهر المقتحمون، وكأنهم من نفس أولئك الآسيويين الذين دعوهم من قبل بأسماء عامو. ستيتو، منتوساتت، قوم رتنو، بمعنى استخدام كل الأسماء التي عرفت في الدولة

القديمة والوسطى، والتي كانت تشير إلى الآسيويين الذين كانوا جيرانا لمصر، وهذا يعني أن المصريين – على عكس ما نقل عن مانيتو- لم يروا فيهم شعباً مجهول الأصل، أو غازياً جديداً، وأنهم كأولئك الذين أزعجوا الحدود الشمالية الشرقية في عصر الانتقال الأوّل. (مهران ١٩٩٥،ص٤٥٥)

وقد أثبتت الدراسات العصرية الحديثة حينما طابق العلماء الهكسوس مع ملوك السلالة الخامسة عشر لمصر، الذين حكموا من حوالي ١٦٧٠-١٥٧٠ ق.م، قبِل العلماء الأوائل تقرير منيتو حرفياً، وبحثوا عن أدلة على أمة أجنبية قوية، أو مجموعة عرقية جاءت من بعيد لغزو وفتح مصر. أظهرت الدراسات اللاحقة أن النقوش والأختام التي تحمل أسماء ملوك الهكسوس تدل على أنهم كانوا ساميين غربيين، وبكلمة أخرى؛ كنعانيّون. وأكدت التنقيبات الأثرية الأخيرة في دلتا النيل الشرقية هذا الاستنتاج.

وكان التنقيب الأثريّ الأكثر أهمية هو ما قام به مانفريد بيتياك "Manfred Bietak"، من جامعة فيينا، في تل الدبا، حيث حدد موقعاً في الدلتا الشرقية، طابقه على مدينة أفاريس عاصمة الهكسوس، وبينت التنقيبات هناك زيادة تدريجية من التأثير الكنعاني في أساليب الفخاريات والهندسة المعمارية، والقبور من حوالي ١٨٠٠ ق.م. في عهد السلالة الخامسة عشر، أي بعد حوالي ١٥٠ سنة، صارت الثقافة الحضارية للموقع، التي أصبحت في النهاية – مدينة ضخمة، ثقافة كنعانية بشكل كبير. إن اكتشافات تل الدبا تدل على تطور طويل وتدريجي من الحضور الكنعاني في الدلتا، وعلى سيطرة سلمية على السلطة هناك. انه في وضع مماثل بنحو غير دقيق، على الأقل في خطوطهم العامة الواسعة، لقصص زيارات الآباء إلى مصر، وتوطنهم النهائي هناك. أما أن مانيتو – الذي كتب تاريخه هذا بعد ١١٥ سنة تقريباً، ووصف فيه حكم الهكسوس أنه كان نتيجة احتلال وحشي، بدلاً من هجرة سلمية وتدريجية، فيجب-في الاحتمال الغالب-أن يفهم على خلفيّة زمانه الخاص، حيث كانت ذكريات غزوات مصر من قبل الآشوريين والبابليين والفرس، في القرنين السابع والسادس ق. م، ما تزال حية -بشكل مؤلم-في الوعي المصري. (فنكلشتاين و سيلبرمان ٢٠٠١،ص٨٨)

ولقد أثبتت الاكتشافات الأثريَّة من عهد الهكسوس في مصر وفلسطين وسوريا بشكل قطعي إلى عدم وجود عنصر غير عربي شارك في غزو مصر، بل أن المؤشرات تدلل بوضوح أن

الكنعانيين الشرقيين –الأموريين-والكنعانيين الغربيين-الكنعانيين سكان فلسطين-، هم أنفسهم الهكسوس، فقاعدة الإنطلاق إلى مصر كانت من سوريا وفلسطين. (J.G.Duncan,١٩٣١,p.٥٩)

وإذا نظرنا إلى خارطة شبه جزيرة العرب، وإلى منطقة غامد وزهران التي تعنينا في عملية البحث عن موطن هؤلاء، لوجدنا أن المنطقة التي توغل فيها عوني قائد الملك (بيبي الأول) في الشمال والشرق، وحارب فيها سكان الرمال والآسيويين، وقطع أشجار التين والعنب في طريقه إليها، إنما هي المنطقة الواقعة شمال شرق زهران مباشرة، على الطريق الدولي الصاعد إلى الطائف، مقابل جبل إبراهيم. وفي هذه المنطقة تماماً نلتقي بالبلدة القديمة التي ما تزال تحمل الاسم ذاته، وهي بلدة الصوت، ومن هنا، فقد تكون التسمية تعني (حكام الصوت) أو (ملوك الصوت)، وكلمة الصوت مؤلفة في الأصل من (إل-سوت) وتعني رب الشياه والخيل. (داود١٩٩٧، ص٦٦٩)

أما عن التركيبة السكانية، فيقول فيليب حتّى:" كان الهكسوس في الأصل حشداً، أو مجموعة لا تسمية لها من البشر قذفتها منطقة البحر المتوسط إلى مصر. ثم أصبحوا يمثلون حركة تضم عدداً من الساميين، الحوريين، الحيثيين، الميتانيين. (حتى ١٩٥١،ص١٥٧)

إن كل ما يذكره المؤرخون عن الهكسوس يثبت مقولة واحدة ،أن كل من دعي من الهكسوس ليسوا إلا مجموعة من السكان المحليين في شرق بلاد زهران، زحفوا بقيادة أمرائهم واستولوا على أراضي المصريين في المنطقة الغربية والجنوبية من زهران نفسها، فكان ذلك رداً على اجتياح مناطقهم الشرقية على يد (أحمس)، و(عوني) قائد جيش (بيبي الأول). (داود ،ص٦٧١)

ومن الأسلحة التي تسلح بها الهكسوس السيوف المستقيمة والمقوسة، والخناجر والحراب المصنوعة من البرونز والحديد، وهي تبين مدى الثروة في المعادن التي تميزت بها آسيا الصغرى، وأنَّ وجودهم في مصر كان نتيجة تسلل بشري، أكثر منه غزو حربي، وأنه استغرق عدة أجيال، استطاعت العناصر المتسللة في نهايتها أن تسيطر على الدلتا ومصر الوسطى حتى القوصية جنوباً. (سليم١٩٩٤ ،ص١٣٠)

ويرى الباحث بعد استعراض هذه الآراء أن الهكسوس ما هم إلا قبائل كنعانية أمورية، بدلالة أسمائهم والآلهة التي عبدوها، فكلها أسماء عربية كنعانية. فهم إذن قبائل عربية

كنعانية وفينيقية وغيرها من الأجناس العربية الأخرى، وعلى ذلك انه كان يوجد عنصر عربي واضح قد اختلط مع غيره من الأجناس فيما يطلق علية بهجرة الهكسوس وهذا ليس غريباً استناداً إلى ما أحدثوه من ناحية الحضارة، كما سنرى لاحقاً في الإنجازات الحضارية

ثانياً: الهكسوس ودخولهم مصر:

بعد سقوط الأسرة الثانية عشرة المصرية، بدأ في فلسطين العصر البرونزي المتوسط الثاني، حيث كانت مصر في ذلك الوقت قد بلغت من الضعف درجة لم يمكنها معها من توطيد إمبراطورتيها في آسيا، ولذلك فان الشعوب السامية في الشمال الغربي التي كانت تستعمر آنذاك معظم أجزاء سوريا وفلسطين، كانت مطلقة اليد في تطوير اقتصادياتها وقوتها الحربية دون تدخل من الخارج، وربما كان من فلسطين مجيء أول فوج من الغزاة الساميّين الهكسوس قبل نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد بوقت غير قليل، ثم توغلهم في مصر، ويبدو أنهم غمروا الوجه البحري ومصر الوسطى قبل قيام أمراء الهكسوس بتكوين الأسرة الخامسة عشرة في مصر في أوائل القرن السابع عشر ق.م.

ولا تزال تحركات الشعوب التي حدثت في أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد بالغة الغموض، غير أنه يبدو حدوث هجرة على نطاق واسع للشعوب الهندو-أوروبية والحورية نحو الجنوب، وإن كانت لا توجد آثار لتلك الشعوب في فلسطين أو جنوب سوريا خلال القرنين التاسع والثامن عشر ق.م، إلا أنه ما أن حل القرن السابع عشر ق.م، حتى كان أمراء الشعوب الهندو-آرية والحورية متواجدين في كل من سوريا وفلسطين، في محاولة لإعادة نسب الهكسوس إلى تلك الأصول. (ابونحل،ومخيمر٢٠٠٨،ص٧٣)

أما الهكسوس فقد دخلوا مصر من ناحية الشرق، بينما يفترض أن مدنهم –حسب تصور المؤرخين-تنتشر في فلسطين، وسوريا، أسيا الصغرى، وقد أذَّلوا ملوك مصر، وأحرقوا المدن، ودمَّروا الهياكل، وسبوا النساء والأولاد (وأن أحداً لم يسمع بتدمير مدن مصر)، وقد أقاموا مكان المقصود بهم عشيرة أشوريم من أبناء دادان بن يقشان بن إبراهيم بن غامد وزهران. ولقد بني الهكسوس مدينة أورا (أفاريس باليونانية) وهي مدينة العنابر في زهران زمن يوسف بن يقشان بن إبراهيم بين غامد و زهران قد بنوا مدينة (أورا) (أفاريسو - باليونانية) وهى مدينة العنابر فى زهران زمن النبى يوسف بن يعقوب ولم يعثر على أي ذكر أو اثر لهذه المدينة في مصر

وادى النيل و كلمة (اورا) هي في الأصل حورا أي المغارة (داود ١٩٩٧م ص٦٧٣)،بينما يتفق الكتبة المصريون القدماء منذ عصر الأسرة الثالثة عشرة إلى عصر مانيتون على نعت عصر الهكسوس بعصر الويلات و الفظائع ، يشير الواقع بأن الهكسوس لم يكونوا غزاة همجيين، كما صورهم أولئك الكتبة ، بل دخلوا مصر مسالمين في فترات مختلفة، وعلى دفعات، ومن دون أن يشكّلوا تنظيمات عسكرية غزت مصر، و أرهبت المواطنين الذين لم يكونوا يملكون من الأسلحة سوى الخناجر النحاسية التي لا تقارن بأسلحة الهكسوس المتطورة. وهم عندما استخدموا أنواعا متطورة من السيوف و الخناجر البرونزية التي لم يعهدها المصريون من قبل، واستخدموا العربات الحربية و الخيول، و الدروع الواقية لأجسامهم، انما لجاؤا اليها بعدما حطوا رحالهم في الشمال، و طاب لهم العيش في الدلتا، ثم شعروا بكراهية المصريين لهم، و بنيتهم المبيّتة لزعزعة حكمهم ، ورفض وجودهم بينهم لأنهم حكاما أجانب آسيويين (هبو١٩٩٥،ص١٨٨)

واستخدم الهكسوس السيوف المستقيمة والمقوسة والخناجر والحراب ذوات الطرف الطويل والمتسع من البرونز والحديد، كما استخدموا كذلك الأقواس المركبة، وكانت تصنع من طبقات من الخشب، وأوتار العضلات والقرون، وكان يمكن الرمي بهذا القوس إلى مسافة أبعد بكثير من الأقواس العادية التي كانت مستعملة في مصر. (سليم وعبداللطيف،١٩٩٦م ص٢٣١).

وفيما يتصل بملوك الهكسوس وحكمهم في مصر فإنّنا لا نعرف عن بداية تسلط الهكسوس في مصر إلا النذر اليسير، وذلك نظراً لانعدام الوثائق التاريخية عن هذا العهد، وكل ما لدينا هو أسماء عدة ملوك لا يمكن ترتيب تاريخها ترتيباً مسلسلاً. وقد حاول وليام فلاندرز بتري أن يرتب هؤلاء الملوك ترتيباً تاريخياً على أساس اختلاف صناعة الجعارين المنقوشة عليها أسماء هؤلاء الملوك، غير أن ذلك لم يجد نفعاً.(المبيض ١٩٨٧م ص١٣١)

وقد وجد اسم (خيان) على صخرتين في جبلين بين طيبة والشلال الأول و على تمثال في تل بسطا شرق الدلتا وكذلك في خرائب جزيرة في فلسطين وفى بغداد بالعراق (مقلد،٢٠٠٣،ص١٠٦)

حاول الهكسوس أن يتمصَّروا حتى يتقبلهم المصريون ولا ينظروا إليهم نظرتهم إلى الأجنبي الدخيل، فاتخذوا أسماء مصرية خالصة، مثل: سوسرنوع، وعاوسرع، إلى جانب

أسماءهم الأصلية: خيان، وأبي، وتشبهوا بالفراعنة الوطنيين في تلقيب أنفسهم بألقاب الملوك المصريين المعروفة ومنها: اللقب الحوري، وارتدوا ملابس الملوك المصريين بأزيائهم المتداولة (هبو،ص١٨٨)

وكما ذكرنا تدل الآثار الرئيسية التي تعود لذلك العصر وهي آلاف من الجعلان (الجعارين)، التي استخدمها موظفوها وأعيانهم لختم الوثائق والأواني، وفي الواقع لم يوجد في أي عصر في تاريخ فلسطين جعلان بالكثرة التي وجدت في تاريخ الهكسوس، منذ حوالي عام ١٧٠٠- ١٥٥٠ ق.م، وقد كان ذلك العصر عصر رخاء محلي كبير، زاد فيه عدد المساكن والمقابر زيادة منتظمة مضطردة. كما أن الأثاث الجنائزيّ من العصر البرونزيّ المتوسط قد فاق أي شيء آخر عرف في تاريخ فلسطين.

بينما عثر لدى أحد تجار الآثار فى بغداد على تمثال أسد صغير ارتفاعه نحو ٢٥,٤سم و طوله ٤٨,٢سم و قد نقش على صدره (الاله الطيب ساوسر ان رع) وفى أساس قصر كنوسوسالثا فى كريت عثر على غطاء آنية من المرمر نقش علية (الإله الطيب ساوسر ان رع ابن الشمس خيان) (حسن،١٩٤٨،ص٩٤)

أما الرخاء الذي عم فلسطين، فربما كان ناتجاً على الأخص عن ازدهار التجارة في ذلك العصر، إذ أضحت فلسطين طريقاً هاماً في التجارة بين أفريقيا وآسيا، غير أن كثرة الأسلحة والحلي المصنوعة في مصر، أو المصنوعة طبقاً للأسلوب المصري في آثار ذلك العصر، إنما يدل على أن كثيراً من تلك الثروة قد جلبها المحاربون الذين كانوا يحاربون في مصر في صفوف الهكسوس.

حكم الهكسوس حكماً عسكريّاً، ولما كانت سمتهم الغالبة أنهم بدو قبليّون رحّل، واتخذوا (حه-وعرة)، وهي مدينة (حوارة أو حورة) التي تقع شرق الدلتا، حاضرة لهم، ولكنهم ظلوا يكونون دويلات قبلية منفصلة عن بعضها في الغالب، ومن الجدير بالذكر أن الهكسوس كونوا الأسرة الخامسة عشرة في شرق الدلتا ومصر الوسطى، في حين احتفظت الأسرة الحاكمة في غرب الدلتا باستقلالها عن الهكسوس في معظم الأوقات.

حكم من الهكسوس خلال حكم الأسرة الخامسة عشرة ستة ملوك، وحكم في عهد أسرتهم السادسة عشرة اثنان وثلاثون ملكاً (الاسطل٢٠٠٦،ص٩٢) وكما يذكر المؤرخون أنهم نصّبوا

واحداً من أمّتهم ملكاً عليهم يدعى (شلاتيس)، وقد جاء هذا الحاكم واستقر في منفيس، وفرض ضريبة على أقاليم الوجهين البحرى والقبلي على السواء، وأقام فيها حاميات قوية، وخاصة في جهة الشرق، لأنه كان يرى أن الأشوريين إذا ما أحسوا بأنهم أقوياء، سوف يسعون لهزيمة هذه المملكة لذلك بنى بلدة أواريس، وقد قام بتحصينها تحصيناً قوياً، ووضع فيها وحولها كثيراً من المحاربين بلغ عددهم ٢٤٠٠ مقاتل، وكان يأتي إلى هناك في أوقات الحصاد كي يباشر جمع المحصول ويوزع الجرايات على الجنود، ويستعرض انضباطهم تماماً كي يطمئن على أن الأجانب لا يجرؤون على التحرش به بغية امتلاك دولته، وقد سيطر هذا الحاكم على البلاد ١٩ سنة. ثم جاء بعده (بانون) فحكم ٤٤ سنة، ثم أعقبه (أبنخاس) وحكم ٤٦ سنة وسبعة أشهر. وجاء بعده (ايبي) وحكم ٦١ سنة. ثم تلاه (خيان) فحكم ٥٠ عاماً وشهر، ثم خلفه(ايشيس) وهو آخرهم، فحكم ٤٩ سنة وشهرين، وهؤلاء الرؤساء الستة كان المصريون يسمونهم الهكسوس، أي الملوك الرعاة، ويقول البعض أنهم من العرب. أما في عهد الأسرة السابعة عشرة فقد حكم ثلاثة وأربعون ملكاً، ومن المعروف أنهم حاولوا أثناء حكمهم نسيان أصولهم، فتقرَّبوا من أبناء الشعب، وحاولوا استرضاءهم باتخاذ أسماء فرعونية، وبعبادة أرباب البلاد. ولكن تلك المحاولات لم تجد نفعاً، ولم تغير من الواقع شيئاً. ومن الجدير بالذكر أنه قد عاصر الأسرة السابعة عشرة الهكسوسية الأسرة السابعة عشرة الوطنية، التي اتخذت من طيبة حاضرة لها. وهكذا يمكن القول أن البلاد – في ذلك الحين- كانت مقسمة بين عدة ممالك كان أهمها ثلاثة، هي: مملكة طيبة، وتمتد من الفيلة شمالاً حتى أبيدوس جنوباً، ومملكة الهكسوس وتحكم مصر السفلى وإقليم الدلتا، ومملكة النوبة، في جنوب البلاد. (الاسطل ٢٠٠٦م ،ص٩٢-٩٣)

واختلفت الآراء في مدة حكم السلالات العربية المتمثلة بهذه الفترة من تاريخ مصر القديمة، واستثناء من هذه الآراء يمكن أن تحدد الفترة التي حكموا فيها في فترة قرنين من الزمان. ففي لوحة الأربعمائة سنة تتحدث هذه اللوحة بمناسبة مرور ٤٠٠ سنة على عبادة (ستخ)، وهذه اللوحة من زمن حكم (رعمسيس الثاني) ١٢٨٠ ق.م، على اعتبار أن عبادة ستخ في عام ١٦٨٠ ق.م، وهي السنة التي يفترض فيها على الأساس قيام دولة الهكسوس، وليس ببعيد أن يكون الهكسوس قد دخلوا مصر عام ١٧٨٠ ق.م، وأسسوا عاصمتهم (أواريس)، وأقاموا معبداً للإله ستخ، حوالي عام ١٧٨٠ إلى عام ١٥٦٠ ق.م، فيكونون قد مكثوا في البلاد مدة قرنين من

الزمان. لا تسعة قرون كما يقول خطأ أكثر من مؤرخ قديم، أي بمعني أن حكمهم ينحصر بين السلالة الثالثة عشرة وحتى الثامنة عشرة. (شاكر٢٠١١م ،ص١٧٧-١٧٨)

وحقيقة الأمر أن أحداً من الأمراء المصريّين المستقلين ،لم يجرؤ على ادِّعاء الملك وتلقيب نفسه بألقاب الفراعنة المصريين كما كان الأمر في الأسرة الثالثة عشرة. ومرت أيام الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة دون أن يكون هناك من أمراء البلاد من يستطيع مقاومة نفوذهم، ولكنهم في الأيام الأخيرة من حكمهم بدأ بعض أمراء الصعيد يحسون بقوتهم، وكان أكثرهم نفوذاً وسلطاناً أمراء طيبة الذين كانوا يتحالفون مع جيرانهم في شمالي طيبة وجنوبها، وجاء اليوم الذي رأى فيه هؤلاء الأمراء أنهم أصبحوا ذوي حول وقوة، وأن قوة أعدائهم في الشمال أخذت في الانحلال، فلم يترددوا في اعتبار أنفسهم ملوكاً لإقليمهم، وبدئوا يكتبون أسماءهم في خانات ملكية مسبوقة بألقابهم التقليدية بأنهم ملوك الوجهين القبلي والبحري، وهؤلاء هم ملوك الأسرة السابعة عشرة الذين كانوا معاصرين للملوك المتأخرين من ملوك الهكسوس في الدلتا. (سليم ١٩٤٨م ،ص١٣٤)

ولسنا نعرف على وجه اليقين مدى العلاقة بين هؤلاءGardiner ء الملوك وملوك الهكسوس، والوثيقة الأولى التي تتحدث عن بدء النزاع ليست وثيقة معاصرة، وإنما هي وثيقة من عصر متأخر من عصر الرعامسة، وتعرف تلك الوثيقة (ببردية ساليبه). (Gardiner,١٩١٨,pp.٤٠-٤٥)

ثالثاً:- الديانة عند الهكسوس:

أما عن ديانة الهكسوس، فتؤكد المصادر على أنهم في أفاريس كانوا يعبدون الإله (سوتو).(اورمان ١٩٩٥،ص١٢٠) والواقع أن فكرة التوحيد كانت معروفة عند الهكسوس كما كانت معروفة لدى أشقائهم الكنعانيين والسريان والآراميين ،الذين جعلوا أيل إلهاً أوحد منذ ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد واعتبروه الإله الأعلى. والجدير بالذكر أن مدينة أور التي سميت مدينة العنابر أو المخازن، وهي التي عمل بها النبى يوسف بن يعقوب عليه السلام، وتقع على وادي ذيان شمال شرق الشعف، وتتبع لولاية (صين) أو (صان) حيث قادش، وحيث خرجت هاجر في الطريق إلى البرية هرباً من وجه مولاتها سارة.

أما في المدن الأخرى فقد كانت تنتشر عبادة بعل وعشتار وعنات، وعبد الهكسوس الإله (ست) أو (عش) أو (تيفون) أو (شدخ) إله عربي عرفه وعبده فراعنة الجزيرة العربية، والفراعنة

عرب والهكسوس منهم، ولذا فإنهم لم يتركوا عبادة رع والآلهة الأخرى العربية الفرعونية، وخير شاهد على ذلك أن بعض أسماء ملوك الهكسوس قد اقترنت بالإله (رع) مثل الملك (خع وسر رع) وفي هذا الاسم آلهة الفراعنة (أوزير) و(رع) والملك (سخ ن رع)، والملك (ماع اب رع) والملك (بني تاوي رع) وقبلهم (عاقنن رع) و (رع) هو أعظم الآلهة العربية والفرعونية، وهو معبود الدولة الفرعونية بقطريها، وعدم ترك الهكسوس لعبادته يؤكد أنهم كانوا من نسيج الدولة الفرعونية العربية ولم يأتوا من شرقي البحر المتوسط.

رابعاً:- طرد الهكسوس من مصر:

قادت الأسرة السابعة عشرة الطيبيّة الحرب ضد الهكسوس، حيث تمكن الملك كامس من دحرهم عن مصر الوسطى، وخلفه أخوه أحمس الأول الذي تابع المسيرة، فتعقب الهكسوس حتى طردهم من عاصمتهم (حه – وعرة)، ولم يكتف بذلك، لخوفه من عودتهم للبلاد، بعد استجماع قوتهم، فتتبعهم إلى جنوب الشام، حيث كانوا قد تحصنوا في مدينة شاروحيم، "وهي مدينة تل العجول، أو تل عفرة، ويقال أنها حي الشيخ عجلين الحالي"، وحاربهم حتى اضطرهم إلى الجلاء عنها.

وقد عثر في أحد المحاجر القريبة من هذا الحصن على نحت يصور كتلة حجرية كبيرة تجرها ستة ثيران مسنّمة، ونص هيروغليفي يقول:" الحجر مسحوب بماشية، مما استولى عليه الفرعون من أراضي فنخو"، و" والفنخو هم الفينيقيون على الأرجح، أي أراضي فلسطين، حيث يقع فيها حصن شاروهين" (فخرى١٩٥٧، ص٢١٠-٢١٥)

وقد كشفت بعثة مصرية عن عدد من مخازن الجيش المصري وصوامع للغلال، قدرت كمية الغلال التي تحتويها بأكثر من ٢٨٠ طن، مما يشير إلى ضخامة الجيش المصري في عصر الدولة الحديثة، وقال نائب رئيس قطاع الآثار المصرية، رئيس بعثة الحفائر بشمال سيناء الدكتور محمد عبد المقصود، أنه تم الكشف عن بقايا حريق ضخم للعديد من المباني التي احرقت بالمدينة أثناء المعركة، مما يؤكد ما جاء في بردية (رايند) بالمتحف البريطاني أن ملك مصر أحمس الأول قام بالهجوم على قلعة (ثارو) في تل حبوة ودخل المدينة، وحاصر بعد ذلك عاصمة الهكسوس أفاريس (صان الحجر) بمحافظة الشرقية، على بعد ٥٠ كيلو متر من تل حبوة على الفرع البليوزي القديم للنيل والذي دارت به معارك بحرية بين الجيش المصري

والهكسوس، ومحاربتهم في معارك شرسة ,وقضي الجيش المصريّ فيها علي قوّة الهكسوس .

وأشار عبد المقصود إلى أنه تم الكشف من قبل عن المنظومة الدفاعية الكاملة للجيش المصري بشمال سيناء في عصر الأسرة ١٨، والأسرة ١٩ من عصر الدولة الحديثة لحماية مدخل مصر الشرقي، والتي كانت محصنة بعدد ١١ قلعة عسكرية، أهمها نقطة الانطلاق المعروفة باسم قلعة (ثارو)، حيث كان بها أضخم تحصينات عسكرية في العالم القديم منذ الدولة الوسطى وحتى العصر المتأخر، (الأسرة ٢٦.

وأشار إلى أن تلك المنطقة في شبه جزيرة سيناء كانت مركز قيادة الجيش في عصر الدولة الحديثة ومقراً ملكياً لملوك مصر، ومركزاً للقيادة العسكرية وتجميع الجيوش التي خرجت من البلاد لتأمين الحدود، لذلك أقيم بها أربع قلاع ضخمة بأسوار من الطوب اللبن، وخنادق حول هذه القلاع، وموانع مائية ومنحدرات حول هذه الأسوار لمنع تسلق الأسوار، وكذلك أسوار مزدوجة، وبلغت مساحة أكبر القلاع المكتشفة ٦٠٠ متر في ٣٠٠ متر مدعمة بعدد كبير من الأبراج، وسمك الأسوار ما بين ٨ أمتار، و١٤ متراً. (موقع الشرق الاوسط)

واستمرت ملاحقة ملوك الهكسوس في بلاد الشام في عهود السلالة الثامنة عشر الذين جاءوا بعد أحمس ، وبخاصة في عهد الفرعون تحتمس الأوّل ١٥٢٥ – ١٥١٢ ق.م، والفرعون تحتمس الثالث ١٥٠٤- ١٤٥٠ ق.م، حيث تم الإجهاز على البقية الباقية منهم، فتفرقت في بلاد الشام، واندمجت مع سكانها، وتلاشت من الوجود".(الحديدي و ابراهيم ١٩٩٤،ص١٧٤) وأعاد أحمس الأوّل بذلك وحدة البلاد، وافتتح عهداً جديداً بتكوين الأسرة الثامنة عشرة، وبدء تاريخ عصور المملكة الفرعونية الحديثة في مصر، وهو العهد الذي استمّر حتى نهاية عصر الأسرة الفرعونية الحادية والعشرين..(الاسطل ٢٠٠٦م ،ص٩٣)

انتقم المصريون لأنفسهم بعد طرد الهكسوس، فدمروا معابدهم ومحوا آثارهم، وهذا هو سبب غموض تلك الحقبة من تاريخ مصر القديم.

وفي أوائل القرن السادس عشر ق.م، يبدو أن إمبراطورية الهكسوس قد اندثرت، وبدأ حكم أحمس الأول بعد طردهم وعصف حصونهم الجنوبية بعد مقاومة مريرة. وبالفتح المصري لفلسطين خلال حكمي أحمس الأوّل وأمنحتب الأول، نصل إلى عتبة العصر البرونزي المتأخر. وقد أشارت الآثار المكتشفة في مصر ومواقع أخرى في الشرق الأدنى إلى أن استلام الهكسوس

السلطة في البلاد كان سلمّياً، وعلى مراحل طويلة امتدت نحو قرنين من الزمان، وقد استنتج (هارفي بورتر) إلى أن الهكسوس من أصل عربي بدليل أسمائهم.

كما ترتب على الغزو الهكسوسي لمصر مضاعفات خطيرة أدت بمصر بعد تخلصها من حكم الهكسوس إلى دخولها في عصر المنازعات الدولية، مما دفع ملوك مصر إلى اعتماد استراتيجية وتكتيك جديد قائم على مبدأ "هاجم كي لا تُهاجم، بل انتقل الحرب إلى ما وراء سيناء؛ كي لا تضطر إلى الحرب داخل وادي النيل". وكان المصريون يوقنون بأن حدودهم الطبيعية إنما تبدأ في سوريا بدليل أنهم لاحقوا الهكسوس حتى مدينة (زاهي) في لبنان. ورغم أهمية موقع بلاد كنعان بالنسبة لمصر من قبل، إلا أن تلك الأهمية تأكدت بعد طرد الهكسوس من مصر ، فعملت الأخيرة على جعل كنعان قاعدة عسكرية مهمة؛ لحفظ الأمن والاستقرار داخل مصر نفسها، بعكس ما ذكره (الأب دوفو)، الذي زعم أن طرد الهكسوس من مصر لم يكن له أي تأثير مباشر على فلسطين.,(De Vaux ,١٩٦٥,p.١٢٠)

ولا شك أن المصريين تعلّموا الكثير من الأشياء بعد طرد الهكسوس من مصر، كان أبرزها:

١- أن الهجوم خير وسيلة للدفاع.
٢- أنه لا بد من إعداد جيش قادر ومدرب على مواجهة أي خطر خارجي.
٣- تطوير العجلات الحربية والأسلحة المتنوعة من أهم ضرورات تأمين حدود مصر.
٤- ضرورة تأمين الحدود المصرية من جهة بلاد النوبة جنوباً ، وقبائل الليبو غرباً بالإضافة لحدود مصر الشمالية الشرقية؛ لأن تلك المناطق دائماً ما تكون عرضة لهجمات الأغراب.

خامساً:- البناء الحضاري للهكسوس

أثبتت معظم الدراسات الأركولوجية أن فترة حكم الهكسوس –في العصر البرونزي الوسيط الثاني- امتازت ببناء المدن ،وازدياد النمو والتطور العمراني في فلسطين، فوصلت مدينة (تل العجول) إلى أزهي عصورها، كما تمكن الهكسوس من بناء مدن ذات حجم جيد في منطقة القدس. وفي المجال العسكري فقد أمدوا فلسطين بأدوات وآلات حربية حديثة. وكان الحصان من أهم الوسائل التي أدخلوها على المفاهيم والأساليب العسكرية، وكذلك العربات ذات العجلات والدروع؛ مما كان له أثر على مدى القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م، في مصر

وبلاد كنعان. (المبيض١٩٨٧،ص٦٦)

وقد عثر على آنية فخارية في مصر ترجع إلى نهاية العصر البرونزي القديم ٢٠٠٠ ق.م، تعود إلى الهكسوس، وقد ظهر الهكسوس في مصر قبل هذا التاريخ بحوالي ٢٠٠ سنة، وهذا يدلل أن وجودهم في فلسطين أبعد من هذا التاريخ، أو بعبارة أخرى هم أموريون كنعانيون.

ومن المؤكد أن الأموريين الكنعانيين كانوا يسكنون فلسطين في ٢٥٠٠ ق.م، أو قبل ذلك بكثير.(السعد١٩٩٨،ص٤٦)

وكان الهكسوس قد أحضروا معهم عند غزوهم لمصر الحصان والعربة، ولم يكونا معروفين آنذاك في مصر. وكان من أثر أداة الحرب هذه بالإضافة إلى الروح الحربية الجديدة التي اكتسبها المصريون منذ أجيال نتيجة صراعهم ضد المغتصب الأجنبي، أن استيقظت روح جديدة لدى المصريين، فمنذ هذه اللحظة نراهم يمدون أبصارهم نحو الخارج، واستطاعوا عن طريق سلسلة من الملوك الممتلئين حماسة أن يكونوا إمبراطورية عالمية. (شورتر١٩٩٧، ص١٧-١٨)

ومن حيث الأسلحة فإنها تطورت بحكم الاحتكاك بالجيوش الأجنبية تطوراً أعان على كسب المعارك وإنزال الخسائر الفادحة بالعدو. فقد شملت الأسلحة: القوس والنشاب والبلط، كما أجاد جند المشاة إطلاق النبال وتصويبها في دفعات متجمعة، فكانت أشبه بالمدافع كثيفة النيران، وكانت لفرق النبالة المصرية مكانة عظيمة، بل إن شهرتها ذاعت بين جيوش العالم، حتى بما فيه الجيش الروماني. (حجازى٢٠٠٠،ص٨٣)

ومن الأسلحة، التي أحدثت انقلاباً خطيراً في أساليب الهجوم، العجلات الحربية، وهو ما استفاده المصريون من الهكسوس، فقد جلبوها معهم في حربهم مع المصريين، كما عرف المصريون عنهم الخيول، فاستخدموها في جر العجلات التي أتقنوا صنعها. وفرض التنظيم العسكري على الملك أن يكون له حرس خاص بشعار خاص، وكان هذا الحرس يرافقه في جميع أوقاته، وفي الأماكن التي يقصدها، كما أصبح للملك هيئة أركان حرب من الضباط يجتمع بها وقتما يشاء ليشاورها ولتستنير برأيه، ولما توفى أحمس الأول كانت النزعة العسكرية قد طغت على الزعامة المصريّة، بل على كل أبناء الشعب، ومن ثم أصبح الفكر العسكريّ هو المسيطر على العقليّة المصريّة لعدة قرون، فكان من الطبيعي أن تتطلع طبقات الشعب، ولا سيما الطبقة الوسطى إلى تحقيق الثراء، والمكانة الاجتماعية بالانخراط في سلك الخدمة المسلحة.

كما كان للهكسوس فكر جديد في صناعة الخزف أدخلوه إلى فلسطين، وهي من الصناعات التي لاقت نجاحاً كبيراً خلال فترة حكمهم. (حتى،١٩٥١م ص١٥٨)

ويعتقد المؤرخون أن الهكسوس هم الذين أدخلوا العلوم إلى مصر، ولا سيما علم الرياضيات، حيث يقول (بريستيد): " ويتضح أن دخول الهكسوس إلى مصر لم يكن شّراً مطلقاً، فأقدم مؤلف علمي وصلنا يرجع إلى عصر الهكسوس في مصر في القرن السابع عشر ق.م". ويضيف ت. بيت على ذلك قائلاً " وأعظم مساهمة في معرفتنا عن الرياضيات المصرية وضعت في ١٥٨٠ ق.م تحت حكم الهكسوس. (داود١٩٩٧م ،ص٦٧٤)

واستخدم الهكسوس اللغة المصريّة وكتابتها الهيروغلوفية، وظهرت أسماؤهم الملكيَّة في الخراطيش المعهودة في الكتابات الرسمية، وعلى آثارهم.

وفي قصة يوسف عليه السلام إشارات الى الرقي الحضاري الذي كان عليه البيت المصري في الطبقات العليا والحاكمة في ذلك العصر الذي حكم فيه الهكسوس مصر، فقد كان يتكون من حجرات شتى وأبواب متعددة، وأجنحة مختلفة، بدليل أن امرأة العزيز حينما أرادت أن تراود يوسف عن نفسه غلَّقت الأبواب، قال تعالى" وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب.."،(سورة يوسف، الآية ٢٣) حيث أن كثرة الأبواب دليل على تقدم العمارة والحضارة في ذلك الوقت. ودليل آخر على تقدم العمران في ذلك العصر أنها أحكمت إغلاق باب حجرتها الخاصة عليها، وقبل ذلك أحكمت إغلاق الأبواب كلها، وهذا دليل على أن الأبواب كانت لها مفاتيح وتفتح وتغلق من الداخل والخارج، وذلك يعتبر تطّوراً معماريَّاً هائلاً في ذلك العصر القديم.

ومن الأشياء الحضارية المهمة التي ذكرت في سورة يوسف قوله تعالى" فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكئاً، وآتت كل واحدة منهن سكيناً.."،(سورة يوسف،الاية٣١) فتخيل الرفاهية في بيت عزيز مصر: إذ يوجد في البيت مساحة واسعة تكفي لأن تعد فيه السيدة حفلاً لكبار النساء المترفات، بينما تطوف عليهن الخادمات بأطباق الفاكهة وسكاكين يأكلن بها.

وغالب الأمر أن الهكسوس قد عرفوا هذه الرفاهية وتعلموها من العمران المصري بعد أن تمصّروا وتعلموا من المصريين ترف الأكل بالسكين.

ولما كان عدد الهكسوس قليلاً، وكانت خبرتهم في الإدارة قاصرة في بداية حكمهم، فإنهم استعانوا بالموظفين المصريِّين، واعتمدوا عليهم في تصريف شؤون البلاد اليومية، إلى جانب الموظفين الأجانب الأكفاء، فقد ورد اسم موظف كبير يدعى هور، وهو إسم سامي خالص، شغل منصب "رئيس الخزينة"، المسؤول عن أموال الدولة بكاملها من غزة التي تشكل حدود دولة الهكسوس في الشمال في فلسطين، إلى كرما في الجنوب، التي تقع في بلاد النوبة العليا.

وتشير الوثائق العائدة إلى عصر الهكسوس إلى أن مواطناً مصريّاً شغل المنصب نفسه في عهد ملك آخر. ولم يعدم الهكسوس مؤيدين لهم ومخلصين من الموظفين والمواطنين، كما لم يكونوا موضع كراهية كل المصريِّين، كما يصورهم الكتبة المتأخرون، فقد تزوج أحد أمراء طيبة من أميرة هكسوسيّة، كما يستخلص من العصور على آنية للزهور كتب عليها إسم ابنة الملك أبوفيس، وتدعى هيريت، في قبر أمنحوتب الأول. (fischerweltgeschichte,١٩٦٥,pp.٣٥٥-٣٥٨)

ومن المواقع الكنعانية التي كانت منتشرة ولها شأنها خلال فترة الهكسوس في جنوب فلسطين بالقرب من (تل العجول)، نجد (تل الفارعة) أخر معاقل الهكسوس، و(تل جمة) و(جيرار) التي يقال: إنها (تل أبو هريرة)، وكانت جميعها مسورَّة تماماً، وقد شملها الازدهار العمرانيّ والزراعيّ في ذلك العصر، كما قام الهكسوس بترميم معظمها. ومن المدن المهمَّة في فلسطين زمن الهكسوس أيضاً مدينة (حاصور) في الشمال التي امتازت بالتحصينات الجيدة، وكان يحيط بها سور عظيم مرتفع، وحصن (شكيم)،(نابلس) مخطط الهكسوس المستطيل، وكذلك (لاكيش) و(شاروحين) و (بيت شمش) و(أريحا) التي كانت من حصون الهكسوس منذ حوالي ١٧٥٠ حتى ١٦٠٠ ق.م. (حتى١٩٥١م ،ص١٥٧)

ومعظم القطع الأثريَّة التي يرجع تاريخها إلى ذلك العصر وجدت في المقابر، وكانت تلك المقابر عادة مقابر عائلات استمرَّ استعمالها لذلك الغرض أحياناً عدة أجيال ، ونجد أيضاً مقابر أفراد، وتكون كل منها من بئر رأسيَّة تؤدي إلى غرفة تحت الأرض تتصل بالبئر عن طريق باب جانبي، وقد زودت عادة مقابر النبلاء والأثرياء ونسائهم بأسلحة وحلي ثمينة، ومن الطبيعي أن تلك المقابر قد احتوت دائماً على كميات وفيرة من الفخار (البرايت ١٩٩٨،ص٩٥)

كما عرفت مصر الشيء الكثير عن ثقافات و ديانات تلك الشعوب ، فرحبت بإقامة المعابد

لألهتها في مصر ليتمكن من عبادتها من شاء من بنيها المقيمين فيها ، فقد عثر في (تل سبسطية) على قاعات كبيرة مربَّعة الشكل تقريباً ، أراضيها مرصوفة بقوالب من الحجم الكبير و بانتظام عن بعضها البعض جدران، و في داخل بعض هذه القاعات أفران مستديرة تحميها ، جدران ثعبانية الشكل ملتوية غير سميكة من الطين تبعد الدخان، وهى في اتجاه الشرق/ غرب وكأنها مصدات للريح، وقد اتخذت هذا الشكل لتصمد في مكانها مدة طويلة ، ومن النظرة المبدئية يمكن أن نقول أن هذه الأفران قد أقيمت في هذا المكان أو هذه الطبقة بعد أن هجرت في بداية عصر الدولة الحديثة ، و أنه يماثل ما عثر عليه من معابد كنعانية في تل ضبعة القريبة من تل سبسطية والتي ترجع لعهد الهكسوس.(بكر١٩٨٤,١٩٨٣)

ولقد عرف الهكسوس صناعة الأواني الفخارية على دولاب سريع و المصقولة صقلا جيدا. وهي أوان رقيقة و مجفّفة بدرجة حرارة عالية ، و تعطى لذلك الانطباع أنها تقليد بالفخار لأوان معدنية.(Albright,١٩٤٩,pp.٨٦-٨٨)

والحقيقة أن الهكسوس لم يكونوا مطلقاً من المخربيّن البدائيّين بل كانوا من الأموريّين الذين تلقوا وصايا الدين والثقافة من العراق وسوريا، ثم نشروها على طول ساحل البحر المتوسط، ولم تكشف لنا الحفائر التي تم تنقيبها على طول طريق مرورهم في فلسطين في القرن الثامن عشر عن أي تخريب لمنجزات الحضارة أو الدين. (جارودى١٩٨٦،ص٤٣)

فرض الهكسوس في سوريا وفلسطين طبقة إقطاعية حاكمة على السكان المحليين، وكان مجتمعهم منظماً في دولة إقطاعية نوعاً ما تمركزت فيها الثروة في أرستقراطية مؤلفة من محاربي المركبات بصورة خاصة، وكان النظام في ظل الحكم الهكسوسي تسيطر عليه الصفة العسكرية،(حتى ١٩٥١،ص١٥٩) مما ينفي عن الهكسوس صفة التخريب.، كما سبق القول فقد أظهرت المكتشفات الأثريَّة في فلسطين و مناطق الدلتا في مصر أن فترة حكم الهكسوس كانت من أزهى المراحل التاريخيّة و الحضاريَّة في الشرق الأدنى (Kenyon,١٩٧٣,p.٨٦)

بعد طرد الهكسوس من مصر، امتزجت دماؤهم وطرق حياتهم وعاداتهم في بلاد كنعان بسكان البلاد الأصليين من الكنعانيين (الدبَّاغ ،١٩٦٥م ص٥١٤،حتى،١٩٥١ص١٦٠)

وبهزيمة الهكسوس وعودة السيادة المصرية على فلسطين في حوالي منتصف القرن السادس عشر ق.م، بدأ العصر البرونزي المتأخر، وظلت حضارة فلسطين في ذلك العصر الأكثر غنى في

فينيقيا وجنوب سوريا، ولولا تأثرها بالحضارات الشماليّة، لكانت فلسطين قد فقدت بسهولة حضارتها الأصليّة، وأضحت حضارتها صورة منعكسة للحضارة المصريّة (اولبرايت،١٩٨٨م ص٩٩-١٠١).

الخاتمة:

بعد الانتهاء من هذه الدراسة ، بالإمكان الوقوف عند نتائج الدراسة وهي .

١- لقد حكم الهكسوس في تاريخ مصر الحديثة بين الأسرات من ١٥ – ١٨، و تبين من الاستعراض أن الهكسوس عرب، وأنهم دخلوا إلى مصر في فترة ضعف الحكّام والصراع على السلطة في مصر. واستطاعوا بذلك أن يحكموا مصر لمدة قرن من الزمان،

٢- أسَّس الهكسوس حضارة قويَّة شملت جميع نواحي الحياة المصريَّة، فهم الذين أدخلوا إليها الحصان والعربات وأدوات القتال التي لم يكن للمصريّين عهد بها، وعلَّموا المصريّين نظام بناء العمائر العسكريّة، حيث بنوا القلاع والحصون والأسوار والسقاطات، بالإضافة إلى ذلك علّموهم عمل الأواني المصقولة، ويعتبر الهكسوس أول من أسس حكومة إدارية في التاريخ . ومن الأشياء المهمة التي تعلمها المصريّين من الهكسوس تغيير العقيدة القتالية المصريّة من الدفاع إلى الهجوم، والغزو، وذلك بعدما اتضح لهم أن جيرانهم من الشعوب الأخرى كانوا يتربصون بمصر دائماً لاحتلالها بسبب موقعها الاستراتيجيّ، وأراضيها الخصبة نتيجة وجود نهر النيل، والتطور الاقتصاديّ الذي لم يعرفه جيرانها.

٣- لقد أفاد المصريون من الهكسوس تكوين جيش حديث بأحدث الأسلحة في ذلك العصر، مما ساعدهم فيما بعد على تكوين إمبراطوريّة مصريَّة ممتدّة حتى اتسعت ووصلت إلى حدود بلاد فارس شرقاً، وحدود تونس غرباً، ومن الشمال آسيا الصغرى- على يد الملك رمسيس الثاني الذي هزم الحيثيّين - إلى القرن الأفريقيّ لتشمل بلاد الحبشة وبلاد بنط.

٤- لقد استفادت مصر من غزو الهكسوس درساً مهمّاً، وهو أن فلسطين خط الدفاع الأول عن

حدودها الشرقيَّة ،فأصبح مبدأ مصر في سياستها تجاه فلسطين هو السيطرة المباشرة إذا كانت قادرة على ذلك، وغير المباشرة إذا كانت ضعيفة من الداخل ، كما أنها عملت على أن لا تنفرّد أي قوة بفلسطين.

٥-بعد نهاية حكم الهكسوس بدأ عصر النهضة الثاني في مصر، وكان بداية شروق الإمبراطورية المصرية والتي عرفت أقصى امتداد لها في عصر الملك العظيم تحتمس الثالث، حيث تحولت الاستراتيجيّة المصريَّة من الدفاع داخل الأرض المصريَّة ، إلى الدفاع من خارجها، فامتدّت الدولة المصرية من العراق إلى ليبيا، ومن تركيا إلى السودان جنوبا.

التوصيات :

١- ارتأت الدراسة مواصلة الاهتمام بدراسة تاريخ الشرق القديم ،و خصوصا تاريخ فلسطين القديم ،و كشف إدّعاء اليهود ملكيتهم لأرض فلسطين .
٢- ضرورة التعاون بين الجامعات العربيّة في الأمور البحثيَّة و الاثريَّة والعلميّة .
٣- الاستفادة من الارشيفات العربيَّة و الاجنبيَّة المتعلِّقة بتاريخ العرب القديم.
٤- الاعتناء بالآثار و المخطوطات القديمة التي تتعلق بالمنطقة العربيَّة
٥- تقديم أوراق علميَّة ،وعقد ندوات تتعلق بتاريخ العرب القديم

المراجع:

المراجع العربية

١- أحمد ،ارحيم هبو (١٩٩٥) تاريخ الشرق القديم(٣) مصر، دار الحكمة اليمنية، صنعاء.
٢- أحمد ،أمين سليم (١٩٩٣) تاريخ الشرق الأدنى القديم: مصر وسوريا القديمة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
٣- أحمد، أمين سليم (١٩٩٤) دراسات في تاريخ مصر والعراق منذ أقدم العصور وحتى مجيء الاسكندر الأكبر، دار المعرفة الجامعيّة، الاسكندريَّة.

٤- أحمد ،أمين سليم وسوزان، عباس عبد اللطيف (١٩٩٦) دراسات في تاريخ مصر الفرعونيَّة منذ أقدم العصور وحتى مجيء الإسكندر المقدوني، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة.

٥- أحمد، داؤود (١٩٩٧) تاريخ سوريا القديم، دار الكتاب العربيّ، دمشق.

٦- أحمد، فخري (١٩٥٧) دراسات في تاريخ الشرق القديم، القاهرة.

٧-أسامة ،أبو نحل وعصام، مخيمر (٢٠٠٨) تاريخ فلسطين القديم بين روايات العهد القديم والدراسات الحديثة، مكتبة القدس، غزة.

٨- أنور، الجندي (١٩٨٥) فساد نظرية الجنس الساميّ واللغة الساميَّة، ط١، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس.

٩- جودت ،السعد (١٩٩٨) أوهام التاريخ اليهودي، الأهليَّة للنشر والتوزيع، عمان.

١٠- رياض، الاسطل (٢٠٠٦) تاريخ الشرق العربي القديم، دراسات في تاريخ مصر والعراق وبلاد الشام، ط٣، المركز الدولي، خان يونس.

١١- سليم، حسن (١٩٤٨) مصر القديمة، ج٤، عهد الهكسوس وتأسيس الإمبراطوريَّة، القاهرة.

١٢- سليم ،عرفات المبيض (١٩٨٧) غزة وقطاعها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

١٣- فيليب ،حتي (١٩٥١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة، بيروت.

١٤- عبد الفتاح ،مقلد (٢٠٠٣) الكنعانيّون وتاريخ فلسطين القديم، العربيّ للنشر والتوزيع.

١٥- عدنان، الحديديّ ومعاوية، إبراهيم (١٩٩٤) تاريخ الشرق الأدنى القديم، منشورات جامعة القدس المفتوحة.

١٦- على، فهمي خشيم (١٩٩٨) آلهة مصر العربيَّة، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

١٧- محمد، بيومي مهران (١٩٩٥) مصر والشرق الأدنى القديم منذ قيام الملكيَّة حتى قيام الدولة الحديثة، ج٢، دار المعرفة الجامعيَّة.

١٨- محمد، عبد الواحد حجازي (٢٠٠٠) العسكرية المصرية من طرد الهكسوس إلى طرد اليهود، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.
١٩- محمد ،عزة دروزة، تأريخ الجنس العربيّ، ج١، منشورات المكتبة العصريَّة، بيروت.
٢٠- شاكر محمود، (٢٠١١) موسوعة الحضارات القديمة والحديثة وتأريخ الأمم، الجزء١، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان.
٢١- مصطفي، مراد الدبَّاغ (١٩٦٥)بلادنا فلسطين، ج١، القسم الأول، ط١، منشورات دار الطليعة، بيروت.

الكتب المترجمة:

١- أدلف، أورمان (١٩٩٥) ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم بكر ومحمد شكري، مكتبة مدلولي، مصر.
٢٢- اسرائيل، فنكلشتاين ونيل، اشر سيلبرمان (٢٠٠١) التوراة اليهوديَّة مكشوفة على حقيقتها رؤية جديدة لإسرائيل القديمة وأصول نصوصها المقدَّسة على ضوء اكتشافات علم الآثار، ترجمة سعد رستم، مكتبة صفحات للدراسات والنشر، دمشق.
٢- آلن ،شورتر (١٩٩٤) الحياة اليومية في مصر القديمة، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
٣- رجاء، جارودىّ (١٩٨٦) فلسطين، أرض الرسالات الإلهيَّة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، مكتبة دار التراث، القاهرة.
٤- وليم، أولبرايت (١٩٨٨)آثار فلسطين، ترجمة زكي اسكندر ومحمد عبد القادر محمد، مراجعة، سعاد ماهر، ط٢، دار الأسوار، عكا.

المجلات العلمية:

١- محمد ،إبراهيم بكر (١٩٨٤) مدينة فرعونيَّة تقدم أدلّة أثريَّة جديدة تؤكد الصلات الساميّة مع مصر ، المجلة التاريخية المصرية ، العدد٣٠، ٣١

المواقع الالكترونية:

١- صحيفة الشرق الأوسط،(٢٠١٩) ،(العدد ١٢٥٢٨، ١٧/مارس) (نقلاً عن موقع الصحيفة على الانترنت).

المراجع الأجنبية:

١- De Vaux (Roland). (١٩٦٥).Ancient Israel, its Life and institutions Trans. By: John McHugh,Darton, Longman and Todo, London.
٢- Fischerweltgeschichte,(١٩٦٥). Die AltorientalischenReiche, Bde. ٢-٣, Frankfurt .
٣- Gardiner, A.H.(١٩١٨) Gunn. B.. In J.E. A.. vo. V .
٤- H.Brugsch: History of Egypt Under The Pharoahs, Vol.١.
٥- J.G. Duncan.(١٩٣١) Diggin up Biblical HistoJ.G. Duncan, Diggin up Biblical History ,Vol I .
٦- Kenyon,K.M.(١٩٧٣) .'Palestine in the middle Bronze' Cambridge Ancient History ,٣rd edition ,vol.II ,PART١.Cambridge.
٧- Albright,w.F.(١٩٤٩) .The Archaeology of Palestine, Harmondsworth .